صفحات معدودة ما أضناني وهو موزع على سنوات عمري، حتى في شيكسبير كان المشهد التراجيدي الثقيل يستدعي مشهدا آخر يخفف من وطأته. أين مضحك الملك؟ أين المهرج؟

لست روائيا، لا أعرف كيف يؤلف الكتّاب المشاهد المضحكة. فليكن، لا أستطيع إضحاك القراء، ألا بديل سوى التَغَوُّل عليهم وتحويل ليلهم إلى كوابيس! ربما أشفق على نفسي وزماني فأسقط بلا وعي في عاطفية المسنين، أم ترى العقل يتراجع فأبدو كطفل يلقي حجرا من شرفة بيته لتسقط على عابر السبيل؟ من أين جاءتني هذه الصورة السخيفة. أرى الأطفال كل يوم على شاشة التليفزيون، لا يلقون الأحجار جزافا، ولا يلقونها على عابر سبيل، يصوبونها قصدا على جنود الاحتلال المتمترسين في خوذهم وستراتهم الواقية من الرصاص ومجنزراتهم العسكرية. تابعتهم شهرزاد، شغلها الصغار منذ انتفاضتهم الأولى. كانت في الخامسة من عمرها، يشغلونها فتحكي لي عنهم كلما رأيتها. تقول لأمها حين تلح عليها لتنام. «مش فاضية يا ماما، باتكلم مع جدي في السياسة!» يختلط على الأمر فجأة، أتساءل إن كان ما تراه الصغيرة من مشاهد يمسها ويشغلها فعلا أم أنها تتشبه بالكبار ويروق لها أن تفعل ذلك كما تحب أن ترتدي عقد خالتها وتمشي بحرص في حذاء أمها ذي الكعب العالي؟

ظلمت البنت. تسأل كثيرا، تستعلم، تحاول أن تفهم. تضطرب لما تراه على الشاشة. تجلس على غير عادتها صامتة، تحكم إغلاق صندوق الكلام. الصغار يختلفون عنا، يرون ما لم نكن نراه من صور. يكبرون بسرعة مذهلة. وربما ترسل لهم صور الصغار الذين يماثلونهم العمر رسائل شخصية، لا يتاح لنا الاطلاع عليها.

بالمراسلة وقعت شهرزاد في حب الصغير الذي وقف في وجه الدبابة. كان يماثلها العمر وكانت تعي ذلك. حملت لي صورته وقصاصة من جريدة. قالت اقرأ يا جدي، قرأت: